حلاوة الإيمان لا يعدلها حلاوة

الشيخ د. أحمد بن مبارك بن قنزال المزروعي

لمزيد من المطويات

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE
@Baynoonanet

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، ليس له صاحبة ولا ولد، نحمده جَلَّ وَعَلَا عن نعمة الإسلام والإيمان، ونحمده جَلَّ وَعَلَا على ما منّ علينا من نعم كثيرة وآلاء غزيرة أعظمها نعمة الإيمان.

ثم الصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للإنس والجان؛ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

ففي هذه النسائم الإيمانية والقيم الأخلاقية نجول معكم في رحيقها وجمالها؛ لأنه في الحقيقة أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصّلته القلوب، ونال به العبد اللذة والسرور في الدنيا والآخرة هو الإيمان؛ الذي أخبر الله جَلَّ وَعَلَا أن به سعادة الإنسان فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]

فهذا الإيمان له في القلب ذوق وحلاوة؛ حلاوة لا تعدلها حلاوة، وذوق لا يشبهه ذوق أبدًا.

هذا الإيمان إن وقر في هذا القلب أحياه وأحيا جوارحه، فأصبح الإنسان حيًّا حياة حقيقية: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] فهذا الإيمان أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن له ذوقًا وحلاوة فتأملوا الحديث هذا، حديث عظيم.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ**

كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1].

وجاء عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا»[2].

إذًا لا بد على كل مسلم أن يحرص حتى يصل إلى هذه الحلاوة، ويكون الوصول إليها عن طريق واحد وهو طريق العلم؛ لهذا نجد القرآن الكريم يقرن الإيمان بالعلم، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١] إيمان وعلم.

فالإيمان والعلم توأمان، وقرينان كما قال ابن القيم ذلك.

وأتذكر هنا من جميل مقالات والدنا الراحل الشيخ زايد أنه قال: « سلاحان من تمسك بهما ما غُلب قال: العلم والإيمان».

ومن جميل المواقف والقصص التي تعزز جانب الإيمان وجانب القيم: ما جاء في قصة هرقل مع أبي سفيان لما دعاه فسأله أسئلة؛ فمن الحديث ما قال لترجمانه -كما في صحيح البخاري-:«قل له؛ أي لأبي سفيان: سألتك عن نسبه أي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث بنسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، وسأله أسئلة ومن تلك الأسئلة أنه قال: وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، قال هرقل: وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب»[3]،

(١) أخرجه البخاري (١٦).
(٢) أخرجه مسلم (٣٤).
(٣) صحيح البخاري (٧).

قال كلمة عظيمة: وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب.

حين يخالط هذا الإيمان القلب ويمتزج به ويكون ذوقه وأنسه وراحته في وجود هذا الإيمان، هذه جنة معجلة... هذه جنة معجلة يعيشها الإنسان في الدنيا عندما يكابد ما فيها من آلام، وأحزان، وما فيها من فراق، أو ابتعاد عن الأوطان وعن الخلان، وهذه الدنيا مجبولة على هذا الشيء، فيريد الإنسان في خضم هذه المعركة أن يكون في قلبه ذوق يريحه، وإيمان يُسعده، ويُطمئن قلبه، وإنما ذلك في الوصول إلى تحقيق الإيمان. كما قال هرقل: «وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب».

هنا لفتة مهمة، لماذا كان الصحابة يخالط هذا الإيمان قلوبهم مخالطة قوية حتى يبلغ الإنسان مبلغًا عظيمًا عند الله جَلَّ وَعَلَا بدخول هذا الإيمان في قلبه دخولًا صادقًا.

واللفتة المهمة ذكرها ابن القيم، حيث بين أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عرفوا طريق الباطل جملة وتفصيلًا، وكانوا أبعد الناس عنه بعد إسلامهم، وعرفوا طريق الحق جملة وتفصيلًا، وكانوا أكثر الناس تمسكًا به.

فالإنسان عندما يعرف الباطل، ويبتعد عنه يعرف يقينًا أنه باطل بتفاصيله سيكون أبعد عنه، ويحرص في المقابل على طلب شيء يُغنيه ويُسعده فيدخل الإيمان في قلبه فيتلذذ به، وهذا أمر مهم؛ أن يعرف الإنسان الباطل ويبتعد عنه ويعرف الخير، ويتثبت

ويتشبث ويتمسك به كتمسك الغريق بسترة النجاة.

وإنما يحصل ذلك بالقرآن والسنة؛ لأن القرآن فيه صقل وتنظيف وإخراج كل العقائد الفاسدة، والعبادات غير الصالحة، والأخلاق غير السويّة، فيحصل عند الإنسان تخليةٌ، ثم القرآن يُدخل في قلبه أجمل المعاني العقدية، وأجمل الأخلاق، وأجمل الأقوال، والأفعال فيكون بذلك القلب سعيد.

هذا القلب حفظكم الله آلة كآلة اللسان، والأنف، والأذن مركبة من حقيقة وعضو، فالعضو الصماخ فإن لم تكن الأذن تسمع ما فائد صماخها.

فالقلب إن ما أودع فيه الإيمان لم يكن فيه الفائدة، أو إن نقص إيمانه وذهب ذوقه كان في حرمان وخسارة.

وجاء في مثل هذه المعاني ما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا مثال أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في المرأة: «وَلَا تَجِدُ امْرَأَةٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا»(٤).

لاحظ قد تكون مصلية، صائمة، متصدقة، قد تكون طالبة علم، لكن لا تؤدي حقًا عظيمًا عليها لزوجها، فتجد في نفسها أو في قلبها شعثًا وعدم وجود لهذه الحلاوة التي في القلب، وهذا حرمان وأي حرمان!

وكذلك المعاصي والذنوب، هي تميت القلوب، وتنكت بسببها نكتًا سوداء، تمنع هذا القلب من طعم الذوق الإيماني ومن حلاوة الصلاة، ومن التلذذ بكلام الله؛ فيكون الإنسان في بعض الأحيان يصلي وذهنه شارد، وقلبه لاه، وتجد بعض الناس وهو قائم في الصلاة، يجد لذة عظيمة؛ لأنه يناجي الله، يقع في قلبه أن هذه الصلاة

---

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٠).

صلة بينه وبين الله، يتدبر في معانيها وأقوالها، يفتتح فيها بالفاتحة وما فيها من معانيها، فيجد لذة عظيمة فيدخل في الصلاة، ولا يريد أن يخرج منها.

إذًا علينا أن نحرص على أمرين:

الأمر الأول: التخلية.

والأمر الثاني: التحلية.

تخلية القلب من الذنوب والمعاصي والحقد والغلِّ والكراهية والبغضاء، وأي نوع من أنواع الذنوب.

وتحلية القلب في المقابل: بالتوحيد، وبذكر الله، وتأمل أسمائه وصفاته، ومخلوقاته، وبالقرآن، وصلة الأرحام، وغير ذلك من المعاني التي هي كالنبع الصافي الذي يُسقى به هذا القلب العطشان الذي يريد أن يرتوي ولا ري له إلا طاعة الرحمن.

وفي الختام نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحبب الإيمان في قلوبنا، وأن يُزينه فيها، ونسأله جَلَّ وَعَلَا ثباتًا على طاعته، وسيرًا على سنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يحفظ بلادنا وأوطانا، وأن يوفق ولاة أمرنا لكل خير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.